نماذج من الاتجاه الاجتماعـــــيّ عند ابن باديس

د.عُمـــران عليّ عبد السّلام عليلش* ـ قسم القراءات القرآنية ـ
كلية الدراسات الإسلامية ـ جامعة مصراته – ليبيا .
البريد الإلكترونــي omran19840@gmail.com

تاريخ الاستلام 4 / 2 / 2025م تاريخ القبول 20 /5/ 2025

Models of the Social Approach in Ibn Baddis

*Imran Ali Abdulsalam Alilish

Abstract:
This research focuses on a particular type of Qur'anic interpretation — the reformist and social aspect that addresses real-life issues. Among those who gave attention to this type was Ibn Badis (may Allah have mercy on him), one of the renowned scholars of the Islamic Maghreb who had a significant impact on reforming society in his time. The study begins with an introduction to his life, followed by an examination of selected examples from his exegesis with commentary. It then analyzes a specific example that can influence individuals and communities either positively or negatively depending on adherence to Allah's commands and prohibitions — the topic of parents' righteousness. This is accompanied by a comparison of his views with other tafsir works to enable a thorough comparison of opinions, in order to reach the intended goal and realize the true meaning of the words of Allah Almighty.

Keywords:
Opinions, Ibn Baddis, filial piety, tafsir, models

الملخـــــــــص:

يهتم هذا البحث بتفسير القرآن الكريم في نوع من أنواعه وهو الجانب الإصلاحي والاجتماعي الذي يلامس الواقع، وممن اهتم به ابن باديس –رحمه الله– فهو أحد علماء المغرب الإسلامي المشهورين الذين لهم تأثير في إصلاح الناس في زمانه، فبدأت بالتعريف به، ثم دراسة نماذج من تفسيره والتعليق عليها، ثم تحليل نموذج خاص يؤثر في الأفراد والمجتمعات سلباً أو إيجاباً حسب الامتثال لأوامر الله ونواهيه، وهو موضوع (بر الوالدين) مع مقارنة أقواله – رحمه الله - بتفاسير أخرى؛ حتى تحصل المقارنة بين الأقوال؛ ليتم الوصول إلى الغاية المرجوة؛ وليتحقق المعنى المراد من كلام الله ﷻ.

الكلمات المفتاحيـــــــــة: أقوال، ابن باديس، بر الوالدين، تفسير، نماذج.

المقدمـــــــــــــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

إن العلوم تشرف بشرفها، فالقرآن الكريم وتفسيره وقراءاته من أشرف العلوم وأجلها، ولاسيما وهو يتعلق بأشرف كتاب سماوي ولذا كتبت هذا البحث خدمة لكتاب الله وتفسيره وبيان مراده في القرآن الكريم، فهو يعرض دراسة نماذج من أقوال مفسر من علماء المغرب الإسلامي الذين عرفوا بعنايتهم بالاتجاه الاجتماعي وإصلاح الناس، وكذلك فيه تطبيق عملي لدراسة نموذج وهو بر الوالدين مع مقارنته بأقوال بعض المفسرين؛ لبيان المعنى المراد من كلام الله ﷻ. حيث اخترت له عنواناً وهو: - "نماذج من الاتجاه الاجتماعي عند ابن باديس".

سبب اختيار البحث:

واخترت هذا الموضوع - نماذج من الاتجاه الاجتماعــي عند ابن باديس لأبرز الجانب الإصلاحي الذي اهتم به بعض المفسرين فكان اختياري عن أحد علماء المغرب الإسلامي وهو ابن باديس – رحمه الله - باعتباره أحد علماء المغرب الإسلامي المشهورين الذين لهم تأثير بالــغ في إصلاح الناس في زمانه، وجعلت التطبيق العملي على نموذج بر الوالدين لما له من عناية فائقة به، وذلك لما له من مكانة في إصلاح المجتمعات، فالإصلاح يبدأ من النفس والأسرة ثم ينتقل لما بعدهما.

مشكلة البحث:

عرض نماذج من تفسير ابن باديس، والتعريف به وباهتمامه بالإصلاح الاجتماعي مع بيان آراء أخرى من بعض المفسرين، فهل هو منفرد برأي أو نوع معين من أنواع التفسير عن غيره؟ أم أن لهذه الأقوال أصولا في التفاسير الأخرى غير أن طريقة تناولها تختلف من مفسر لآخر؟

أهداف البحث:

أن أظهر الجانب الإصلاحي الذي اهتم به ابن باديس – رحمه الله – في نماذج من تفسيره ثم تحليل نموذج خاص - وهو بر الوالدين - مع مقارنة أقواله بتفاسير أخرى حتى تحصل المقارنة بين الأقوال ليتحقق المعنى المراد من الآية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يخدم كتاب الله تعالى وتفسيره فهو يعرض نماذج من الاتجاه الاجتماعي عند ابن باديس ثم يدرس نموذجا خاصا بزيادة عناية وهو بر الوالدين بمقارنته بأقوال بعض المفسرين الأخرى ليتم الوصول إلى الغاية المرجوة وبيان مراد الله تعالى من كلامه.

الدراسات السابقة:

وقد جاء هذا الموضوع في الدراسات السابقة في كتب عديدة منها:

1 - الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، للطالبة عائشة سعيدي، إشراف الدكتور: رمضان يخلف، جامعة الأمين عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر، سنة 2013.

2 – جهود الإمام عبد الحميد بن باديس في الإصلاح الديني والاجتماعي من خلال تفسيره للقرآن الكريم، بحث منشور للأستاذ الدكتور: ياسر عطية الصعيدي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 44 سنة 2002.

3 – فلسفة ابن باديس في الإصلاح، للأستاذ الدكتور: عليوان اسعيد، مجلة المعيار، جامعة الأمين عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر، عدد 42 جوان 2017.

ودراستي هنا تختلف عما سبقها من دراسات فهي تعتمد على دراسة نماذج من تفسير ابن باديس، وهو الجانب النظري، وهناك جانب آخر وهو الجانب العملي، حيث تتم فيه طريقة جمع أقوال بعض المفسرين، ثم المقارنة بينها وبين قول ابن باديس، مع الجمع بينها إن أمكن، أو الترجيح بينها، مستعينا في ذلك بكتب اللغة والتفسير والإعراب والقراءات وغيرها مما يعين على فهم المعنى الصحيح والمراد من الآية.

وجعلته على ثلاثة مطالب وهي كالتالي: -

المطلب الأول: التعريف بابن باديس - رحمه الله، والمطلب الثاني: نماذج من الاتجاه الاجتماعي عند ابن باديس، والمطلب الثالث: تحليل نموذج وهو (برّ الوالدين) مع

مقارنته ببعض التفاسير الأخــرى، ثم ذكرت في الخاتمة ما استفدته من هذا البحث، ثم ذكرت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

المطلب الأول ـ التعريف بابن باديس ـ رحمه الله ـ.

التعريف بابن بادِيس: (1305 - 1359 هـ = 1887 - 1940 م) :

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس: رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، من بدء قيامها سنة 1931 م، إلى وفاته. ولد في قسنطينة، وأتمّ دراسته في الزيتونة بتونس. وأصدر مجلة (الشهاب) علمية دينية أدبية، صدر منها في حياته نحو 15 مجلدا. وكان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رياسة الأمور الدينية فامتنع واضطهد وأوذي. وهو مستمر في جهاده. وأنشأت جمعية العلماء في عهد رياسته كثيرا من المدارس. وتوفي بقسنطينة في حياة والده. له (تفسير القرآن الكريم) اشتغل به تدريسا زهاء 14 عاما، ونشرت نبذ منه ثم جمع تفسيره لآيات من القرآن، باسم (مجالس التذكير - ط) ونشر في الجزائر (آثار ابن باديس) في 4 مجلدات. [(1)] ، وأسرته أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه، وكانت منذ القدم ذات نفوذ، ومسيرة للسياسة والحكم في المغرب الإسلامي، ونبغ من هذه الأسرة شخصيات تاريخية لامعة منها المعز بن باديس، الذي كان يفتخر به الشيخ عبد الحميد، ولا عجب في ذلك فهو بمثابة خليفة له في مقاومة البدع والضلال، ومن أسلافه المتأخرين قاضي قسنطينة الشهير أبو العباس أحميده ابن باديس ومكي بن باديس القاضي بها أيضاً.

وأمه من أسرة مشهورة في قسنطينة كذلك هي أسرة "عبد الجليل" تدعى "زهيرة " بن جلول. وأبوه عضو في المجلس الجزائري الأعلى والمجلس العام، كما هو عضو في المجلس، وعرف دائماً بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين بالعمالة القسنطينة، وأسرته كانت تنتمي إلى الطريقة القادرية.

حفظ ابن باديس القرآن على يد الشيخ محمد المداسي، وأتمّ حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدب بذكائه وسيرته الطيبة قدمه ليصلِّي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير، وحين بلغ الخامسة عشر من عمره (1904) زوَّجه والده وأنجب ولداً اسماه عبده اسماعيل توفي وعمره سبعة عشر عاماً.

وقد زار الشيخ محمد عبده الجزائر العاصمة ومدينة قسنطينة سنة (1903) وعمر ابن باديس أربعة عشر عاماً، فمن الممكن أن يكون قد اتصل به أو سمع عنه، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار تردد ابن باديس الشاب على الجامع الكبير، وإمامته بالناس في صلاة التراويح، وهو المسجد الذي زاره محمد عبده في قسنطينة.

ثم جاء دور الرحلة في حياة الشاب فسافر إلى مدينة تونس في سنة (1908)، وسِنُّه إذ ذاك تسعة عشر عاماً، وانتسب إلى جامع الزيتونة، وعرف في دراسته بالجد والنشاط، فأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة، وتخرج بشهادة التطويع في سنة (1911 – 1912م) وعمره ثلاث وعشرون سنة، وعلّم سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت. ولا شك فإن البيئة الثقافية والاجتماعية التي احتك بها والعلاقات التي كانت له مع بعض العلماء أثرت في تكوينه وشخصيته، واتجاهه العقلي، وأكثر ما كان اتصاله قوياً وعميقاً ومؤثراً إنما كان بالشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد النخلي، اللذين يعتبران زعيمي النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية؛ لأنهما كانا من أنصار أفكار جمال الدين ومحمد عبده الإصلاحية، ويذكر لنا الشيخ عبد الحميد ابن باديس، أن الشيوخ الجامدين كانوا ينفّرونه من الاتصال بهما، وبقي بعيداً عنهما تحت تأثير التقليد إلى أن أتيحت فرصة الاتصال بمحمد الطاهر بن عاشور أولاً، ثم مهَّد له فتعرف على محمد النخلي وتأثر به، وذلك في الفترة الأخيرة من دراسته العليا. (2)

العوامل التي أثرت فيه: من أهم العوامل التي أثرت في تكوينه: -

1 - أساتذته الذين سبقت الإشارة إليهم، وغيرهم. إذ غرسوا فيه خلق العلماء، وتواضع الحلماء، وصفات القادة والمصلحين.

2 - أسرته وبيئته، ويحدثنا عن ذلك زميله في الجهاد، الشيخ البشير الإبراهيمي: «الشيخ عبد الحميد بن باديس، من أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية بالجزائر، وبيت ابن باديس في قسنطينة بيت عريق في السؤدد والعلم، ينتهي نسبه في سلسلة كعمود الصبح إلى المعز بن باديس، مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان، ومدت ظلها على شرق الجزائر حينا من الدهر».

3 - وتأثر بالحركة الإصلاحية للأفغاني ومحمد عبده، واقتفى أثرهما، وسلك طريق الشيخ محمد عبده في التربية والتعليم، والإصلاح الديني واللغوي. وأعجب بحركة (المنار) والشيخ رشيد رضا، وبعض تلاميذه يقولون: إنه سمع من الشيخ محمد عبده حينما زار الجزائر ودرس بها بعض الدروس، حين عودته من المنفى في باريس.

4 - وتأثر بابن تيمية وسلفيته، ويعتبره بحق المجدد الواعي والمصلح في شيخوخة الفكر الإسلامي.

5 - وتأثر وأثر في كثير من زملائه المخلصين العاملين معه، مثل: الشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ مبارك الميلي وغيرهم.

6 - فضلاً عن أن نفسه كانت خيرة، وهمته عالية، وعقله مستنيرا، وقلمه سيالا، ومعلوماته وفيرة ومنظمة، وبديهته حاضرة، وذكاءه وقادا.

7 - واتخذ من القرآن الكريم، والسنة الشريفة نبراسا ومنهاجا، وتملكه الفضل والنبل. (3)

المطلب الثاني ـ بعض النماذج من الاتجاه الاجتماعي عند ابن باديس.

الموضع الأول ـ توجيه التفسير لإصلاح المجتمع:

(العلم والأخلاق) ، قوله – تعالى - : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾، بين ابن باديس – رحمه الله - بداية ترابط الآية بما قبلها، ثم بين أن العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة، من أصول التكليف؛ فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما. فجيء بهما بعده، ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيته على آيتها تقديم الأصل على الفرع.

ثم شرع في تحليل الكلمات التي تحتاج إلى بيان مثل: (القفو): اتباع الأثر. (والعلم): إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، وكذلك بيّن السمع والبصر والفؤاد، وميزة كل منهما للإنسان، ويزيد في توضيح الكلمة بالمعاني المستعملة مع الاستعانة بالقرآن واللغة والشعر، حتى يتضح المعنى وينجلي الإبهام.

ثم يبيّن ما يحتاج إلى إعراب في الآية ويوضحه.

ثم بيّن مكانة العلم والأخلاق وأن العلم وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات، فقد بين الله تعالى لعباده في محكم كتابه أنه لا يجوز لهم، ولا يصح منهم البناء لأقوالهم، وأعمالهم، واعتقاداتهم، إلاّ على إدراك واحد وهو العلم، فقال - تعالى- : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾، ثم يتبع ذلك بما يكون من نصائح وتوجيهات فيقول: ولعمر الله إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم، إلاّ بإهمالهم، أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم. ثم يبين ما أمرت به الآية مثل الصدق، وما نهت عنه مثل الغيبة، بطريقة مبسطة في العبارة وموسعة في المضمون، يستفيد منها الجميع. ويستشهد بأحاديث في الغالب صحيحة، وسنذكر في بر الوالدين من هذا البحث كثيراً منها مع تخريجها. [(4)]

الموضع الثاني ـ القول الحسن أساس الترابط بين أفراد المجتمع:

قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا** ﴾ ، ذكر تمهيدا للآية: بين فيه وظيفة اللسان؛ لأنه وسيلة الكلام فقال: اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان. والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاضلون، فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه. وبريد عقله وواسطة تفاهمه. فإذا حسن قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتدّ رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم. وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي في التعاون والتآزر، وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك: فالكلام السيء قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستعداد والتعاون، وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر.

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن. ثم يبين أن الخطاب في (قل) للنبي صلى الله عليه وسلم، والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون لوجهين:

الأول: أنهم أضيفوا إليه وهذه إضافة شرف لا يكون إلاّ للمؤمنين به.

الثاني: أن الذين يخاطبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال إنما هم من حصلوا أصل الإيمان. ثم يحلل الألفاظ والتراكيب على طريقة التفسير التحليلي مسترشداً بالأحاديث النبوية:

و (**الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها. وأفاد قوله - تعالى- : ﴿**أحســـــن**﴾ بصيغة اسم التفضيل أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة، فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام. ثم يبين المعنى الإجمالي للآية بقوله: فحاصل هذا التأديب الرباني هو اجتناب الكلام السيء جملة، والاقتصار على الحسن، وانتقاء واختيار الأحسن من بين ذلك الحسن. وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمة تقال، ولو كلمة واحدة: فربّ كلمة واحدة أوقدت حرباً، وأهلكت شعباً، أو شعوباً، وربّ كلمة واحدة أنزلت أمناً وأنقذت أمة أو أمما. وقد بين لنا النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- مكانة الكلمة الطيبة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الكلمة الطيبة صدقة**» (5) ، والتحذير من كيد العدو الفتان (الشيطان): ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾. (نزغ الشيطان) وسوسته ليهيج الشر والفساد، وعداوته باعتقاده البغيض، وسعيه في جلب الشر والضر، وإبانته لعداوته بإعلانه لها كما علمنا القرآن. فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه إذا تكلموا وإذا سمعوا، فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلاً عن صريحه، ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له، ويتجاوزون عن سيئة الصريح ما أمكن التجاوز. (6)

قلت: نلاحظ أن ابن باديس - رحمه الله – يستغل كل فرصة للتوجيه والارشاد ليستوعب موضوعها وينبه على ما ينبغي أن يعمل به وما يجتنب منها.

الموضع الثالث ـ الاجتماع العام للأمر الهام وارتباط الجماعة بأمر الإمام (تغليب المصلحة العامة على الخاصة):

قوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾

بيّن ما يحتاج إلى بيان من المفردات مثل:

(الأمر الجامع) هو الحادث الذي يتطلب الاجتماع بطبيعته، فيجمع الإمام الناس من أجله.

و (الاستئذان) هو طلب الإذن من الإمام بمفارقة الاجتماع لعذر قاض بالمفارقة. ثم بين المعنى الإجمالي للآية فقال: يأمر الله المؤمنين إذا كانوا مع رسوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- على أمر جامع ألا يفارقوا مجلسه كلهم أو بعضهم إلاّ بإذنه. وأكد هذا

الأمر بما وطأ له من ذكر الإيمان بالله ورسوله، تنبيها على أنه من مقتضاهما. وبقرنه بهما، وجعله ثالثاً لهما، تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على ملازمته لهما ممن صدق فيهما؛ حتى كان غير المستأذنين لا إيمان لهم. وبإعادته في الجملة الثانية، ببيان أن الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون في إيمانهم، المستمرون عليه، تعريضاً بالذين لا يستأذنون وتقبيحا لحالهم بأنهم لا ثبات لهم في الإيمان، ولا استمرار منهم على العمل به، فليسوا بالمؤمنين، ولا بالذين يؤمنون. ثم جعل الخيار لرسوله في الإذن وعدم الإذن لهم إذا استأذنوه لبعض شأنهم، تعظيماً لأمر الاجتماع، وتعظيماً للصالح العام، وتوكيداً لحق الإمام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الأعمال. ثم أمره أن يستغفر لهم، فقد يكون العذر دون الاضطرار، وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع، وحسنات المشاركة فيه بالرأي والاهتمام، وتكثير السواد بسبب ذنب كان منهم في أمر غير الاجتماع، وأكد هذا الأمر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم.

ثم بين الأسباب التي تمنع لهم الذهاب بدون استئذان وما ينتج عنه فقال:

لما كان الاجتماع شرع للمصلحة، والذهاب بدون استئذان حرم للمفسدة؛ فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة. فأحكام الآية مستمرة الأحكام عامة للمسلمين، في كل زمان وكل مكان، مع أئمتهم وقادتهم المقدمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام.

وهذا استنباط منه لأحكام مستنبطة من الآية الكريمة:

1 - أن على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم، إذا نزل بهم أمر هامّ أن يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم ولا أن يستبدوا عليهم.

(قلت: وهذا ترسيخ لمبدأ الشورى)

2 - وأن على المسلمين أن يجتمعوا إليهم ويكونوا معهم، يظاهرونهم ويؤيدونهم، وينصحون لهم، فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم، ولا أن يخذلوهم.

3 - وأن على المجتمعين ألا يذهب واحد منهم إلاّ بإذن.

4 - وألا يستأذن إلاّ لعذر ببعض الشأن.

5 - وأن على الإمام أن ينظر في الإذن وعدمه، فيفعل ما هو أولى.

ثم يزيد تفصيلا للآيات فيبين كلمة (المؤمنين) وما يراد منها في آيات القرآن العظيم.

تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

هنالك المصلحة العامة وهنالك المصلحة الخاصة، ومحال أن تساوى هذه بتلك: انظر إلى الذكر الحكيم كيف عبر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم. وعبر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل. وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وأنها ما كانت تعتبر إلاّ على وجه الرخصة، والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى. (7)

المطلب الثالث ـ تحليل نموذج وهو (برّ الوالدين) مع مقارنته ببعض التفاســـــير:

وهذا المطلب الأخير جعلت فيه تحليلا لكلام ابن باديس، مع المقارنة ببعض التفاسير حتى يكون مثل الجانب العملي للموضوع، حيث تتم فيه طريقة جمع أقوال بعض المفسرين، ثم المقارنة بينها وبين قول ابن باديس، مع الجمع بينها إن أمكن، أو الترجيح بينها، مستعينا في ذلك بكتب اللغة والتفسير والإعراب والقراءات وغيرها مما يعين على فهم المعنى الصحيح والمراد من الآية.

بِرُّ الوالدين (نموذجا):

قال تعالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء:23 و24].

الله هو الخالق، والوالدان- بوضع الله- هما السبب المباشر في التخليق. والله هو المبتدئ بالنعم عن غير عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم.

والله يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته، وهم الفقراء إليه، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد، وهما في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما. والله يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء. فلهذه الحالة التي خصهما الله بها وأعانهما بالفطرة عليها، قرن ذكرهما بذكره؟ فلما أمر بعبادته أمر بالإحسان إليهما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [النساء: 36]. ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾[لقمان: 14]. وفي هذا الجمع في القضاء والحكم بالإحسان والأمر بالشكر لهما مع الله تعالى أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب. ثم زاد هذا الحكم وهذا الأمر تقريراً بلفظ التوصية بها في قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا**﴾ [العنكبوت: 8]؛ ليحفظ حكم الله وأمره فيهما، ولا يضيع شيء من حقوقهما، فكان حقهما

بهذه الوصاية، أمانة خاصة، ووديعة من الله عظيمة عند ولدهما، وكفى بهذا داعياً إلى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها، وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن كذلك جاء في الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية في السنة: ففي الصحيح[8] عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: " الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور " فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت.** [9]

ما في الآيات من قـــــــــراءات:

اختلفوا في قوله تعالى: (**إما يبلغن**) فقرأ حمزة والكسائي وخلف (يبلغان) بألف مطولة بعد الغين وكسر النون على التثنية، وقرأ الباقون[10] بغير ألف وفتح النون على التوحيد. [11] ، قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ (**إِمَّا يَبْلُغَانِّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ**) فإنه تثنية يبْلُغَنَّ؛ لأن الأبوين قد ذكرا قبله، فصار الفعل على عددهما، ثم قال أحدهما أوكلاهما على استئناف. وَمَنْ قَرَأَ (إما يَبلُغَنَّ) جعله فعلاً لأحدهما فكرر عليه (كِلاَهُمَا). [12]

واختلفوا في قوله تعالى: (أف) هنا والأنبياء والأحقاف فقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء من غير تنوين في الثلاثة، وقرأ المدنيان[13] وحفص بكسر الفاء مع التنوين، وقرأ الباقون[14] بكسر الفاء من غير تنوين فيهن.[15]

قوله تعالى: (**فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ**). يقرأ بالكسر منوّنا وغير منوّن، وبالفتح من غير تنوين. فالحجة لمن نوّن: أنه أراد بذلك: الإخبار عن (نكر) معناه: فلا تقل لهما القبيح. والحجة لمن كسر ولم ينون: أنه أراد: إسكان الفاء فكسر لالتقاء الساكنين. وهي: كلمة تقال عند الضجر. ولو علم الله تعالى أوجز منها في ترك العقوق لأتى بها. ومعناها: كناية عن كل قبيح. فإن قيل فلم جاز إجراء الفاء في «أف» لجميع الحركات؟ فقل: لأن حركتها ليست بحركة إعراب إنما هي لالتقاء الساكنين، فأجروها مجرى ما انضم أوله من الأفعال عند الأمر بها، وإدغام آخرها.[16] ، قال ابن عاشور - رحمه الله -: "وهذه الآيات أول تفصيل للشريعة للمسلمين وقع بمكة، وأن ما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين. ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وجه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم. فمن الاختلاف بين الأسلوبين أن هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام، وهو مناسب لخطاب

أمة تمتثل أمر ربها، وافتتح خطاب سورة الأنعام [151] بــ: ﴿**تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ك﴾ ما تقدم هنالك.

ومنها أن هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة، لأنه المناسب لحال المسلمين فحذرهم من عبادة غير الله. وآية الأنعام جعلت المحرم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم، وأن هذه الآية فصل فيها **حكم البر بالوالدين وحكم القتل وحكم الإنفاق ولم يفصل ما في آية الأنعام".** [17]

قال ابن باديس - رحمه الله -: وتقدير نظم الآية هكذا: ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاّ إياه، وبأن تحسنوا للوالدين إحسانا**﴾. فحذف أن تحسنوا لوجود ما يدل عليه وهو إحسانا. وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال. وتقول أحسنت إليه، وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ، لتضمن أحسنت معنى لطفت، ولما في الباء من معنى اللصوق، ولهذا عدي في الآية بالباء ليفيد الأمر باللطف في الإحسان والمبالغة في تمام اتصاله بهما، فلا يريان ولا يسمعان ولا يجدان من ولدهما إلاّ إحساناً، ولا يشعران في قلوبهما منه إلاّ الإحسان.

ومن الإحسان ما يكون ابتداء وفضلاً، ومنه ما يكون جزاء وشكراً فعليه أن يعلم أن كل إحسانه هو شكر لهما على سابق إحسانهما، الذي لا يمكنه أن يكافئه بمثله لثبوت فضيلة سبقه.

وفي تعليق الحكم- وهو الأمر بالإحسان، بلفظ الوالدين المشتق من الولادة، إيذان بعليتها في الحكم، فيستحقان الإحسان بالوالدية سواء أكانا مؤمنين أم كافرين، بارين أو فاجرين، محسنين إليه أو مسيئين. وقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [لقمان: 15]. فأمر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما.[18] وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- قالت: «قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فاستفيتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قلت: قدمت عليّ أمّي وهي راغبة (أي: في العطاء والإحسان) أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك»[19]

وهذا الإحسان الواجب لهما، جانب الأم آكد فيه من جانب الأب، وحظها فيه أوفر من حظه. ويشير إلى هذا تخصيصها بذكر أتعابها في قوله تعالى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**﴾ [لقمان: 14]. وفي الآية

الأخرى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**﴾ [الأحقاف: 15]. فذكر ما تعانيه من ألم الحمل، ومشقة الوضع، ومقاساة الرضاع والتربية. وجاء التصريح بهذا في الحديث الصحيح:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:" **جاء رجل [20] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»**[21]

ولقد كان لها هذا بما ذكر من مزيد تعبها، وضعف جانبها، ورقة عاطفتها، وشدة حاجتها. فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم ومحاسن الشرع الكريم. [22]

ومن الإحسان إليهما طاعتهما في الأمر والنهي، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما.

وإنما تحل له مخالفتهما إذا منعاه من واجب عيني، أو أمراه بمعصية، [23] لما في الصحيح من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**» [24].

ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائي: ما ثبت في الصحيح "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحي والداك؟» ، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»"[25] ، ومن الطريق الثاني، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» [26]

هذا لأن القيام عليهما فرض عيني، والجهاد كان عليه فرض كفاية. ولو تعين عليه ولم يكونا عن كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه.

ومن حقوقهما عليـــه: أن لا يخرج إلى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس إلاّ بإذنهما، بدليل ما جاء في سنن أبي داوود: عن أبي سعيد الخدري، "أن رجلا هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن فقال: «هل لك أحد باليمن؟»، قال: أبواي، قال: «أذنا لك؟» قال: «لا»، قال: «ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»". [27]

أما إذا أراد تعاطي ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات، فليس عليه أن يستأذنهما، وليس لهما منعه، ولكن إذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما، وطاعتهما- في غير المعصية- من برهما. (28)

وبالوالدين متعلق بقوله إحسانا، والباء فيه للتعدية، يقال: أحسن بفلان كما يقال أحسن إليه. وتقديمه على متعلقه للاهتمام به، والتعريف في الوالدين للاستغراق؛ باعتبار والدي كل مكلف ممن شملهم الجمع في ألا تعبدوا. (29)

تفصيل الإحسان إليهما في القول والعمل وتأكيده في حالة الكبر:

الأمر بالإحسان إليهما عام في جميع الأحوال. وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر، لأنها حالة الضعف وشدة الحاجة، ومظنة الملل والضجر منهما، وضيق الصدر من تصرفاتهما. فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما إلى ما كان ولدهما عليه في بدايته، وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما، فكان بأشد الحاجة إلى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما، ومزيد الرعاية لهما، وشدة التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص، وإن كان ذلك واجبا عليه في كل حال على العموم.

وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤونتهما عليه، وما يكون من ضرورات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته، كل هذا قد يؤديه إلى الضجر والتبرم، فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه، فنهي عن التفوه بأقل كلمة تدل على ذلك، وهي كلمة أف بقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ**﴾، فأحرى وأولى ما فوقها. وهذا أمر بتحمل كل ذلك منهما، ونهي عن التضجر منهما.

معنى كلمة أفف : الأف: الوسخ الذي حول الظفر، والتف الذي فيه، وقيل: الأف وســـخ الأذن والتف وسخ الأظفار. يقال ذلك عند استقذار الشيء ثم استعمل ذلك عند كل شيء يضجر منه ويتأذى به. والأفف: الضجر، وقيل: الأف والأفف القلة، والتف منسوق على أف، ومعناه كمعناه، وسنذكره في فصل التاء. وأف: كلمة تضجر وفيها عشرة أوجه: أُفَّ لَهُ وأُفِّ وأُفُّ وأُفّاً وأُفٍّ وأُفٌّ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما، وأُفِّي مُمالٌ وأُفَّى وأُفَّةٌ وأُفْ خَفِيفَةٌ مِنْ أُفّ الْمُشَدَّدَةِ. (30)

ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السن وفي النشأة أنهما كثيرا ما يخالفانه في آرائه وأفكاره، وقد يتناولان ما لا يحب أن تصل يدهما إليه، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة، وكل هذا قد يؤديه إلى نهرهما، أي زجرهما بصياح وإغلاظ، أو إظهار

للغضب في الصوت واللفظ، فنهي عن هذا بقوله - تعالى- : ﴿**وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾. وفي هذا أمر له بالتلطف معهما في الطلب والعرض، والدلالة على وجه الصواب في الأمر وأبواب الفعل والترك، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبان. ونهى عن أي إغلاظ في اللفظ والصوت وحالة الكلام. (31)

ولما نهاه عن القول القبيح المؤذي ... أمره بالقول اللين السهل الحسن في لفظه وفي معناه، وفي قصده وفي منشئه، السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى: {**وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**}. وفي هذا أمر بأن يخاطبهما بجميل القول، ويؤنسهما بطيب الحديث. ونهي عن أن يؤذيها في قول، أو يوحشهما بطول السكوت. فليس له أن يتركهما وشأنهما، بل عليه مجالستهما ومحادثتهما، وجلب الأنس إليهما، وإدخال السرور عليهما.

ثم إن القول إنما هو عنوان ما في الضمير، ولا يكون كريما شريفاً إلاّ إذا كان عنواناً صادقاً، حسن مظهره ومخبره، وعذب جناه، وطاب مغرسه. وما ثماره إلاّ معانيه وما مغرسه إلاّ القلب الذي صدر عنه.

فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه، كما يعرب لها بلسانه، فيكون محسناً لهما حينئذ في ظاهره وباطنه، وذلك هو تمام البر الذي أمر به. (32)

وقوله (**وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**) استعارة أي اقطعهما جانب الذل منك ودمث لهما نفسك وخلقك، وبولغ بذكر الذُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله (**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) [الشعراء: 215] وذلك بحسب عظم الحق هنا. (33)

مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل، وبيان الحال التي يكون عليها: فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفـــراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة، وولدهما يقوم لهما بالسعي، كما يسعى الطائر لفراخه، ويحيطهما بحنوه وعطفه كما يحيط الطائر فراخه، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه، وحذف المشبه به، وأشير إليه بلازمه وهو خفض الجناح، لأن الطائر هو ذو الجناح، وإنما يخفض جناحه حنواً وعطفاً وحياطة لفراخه (...) فيكون في الكلام استعارة بالكناية، وأضيف الجناح إلى الذل- وهو الهون واللين- إضافة موصوف إلى صفة: أي اخفض لهما جناحك الذليل، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتها .. حتى يشعر بأنهما مخدومان باستحقاق، لا متفضل عليهما بالإحسان.

وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة، وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معهما في صغره، ليكون ذلك أبعث له على العمل وعدم رؤية عمله أمام ما قدما إليه. (34)

قوله تعالى: ﴿**جنـــــاح الذل**﴾ : هذه استعارة بليغة، قيل: وذلك أن الطائر إذا أراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما ليرتفع، وإذا أراد ترك الطيران خفض جناحيه، فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع واللين. (35)

و ﴿**من**﴾ في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ للتعليل متعلقة ب"اخفض"، فتفيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا عن الرحمة الثابتة في النفس، لا عن مجرد استعمال ظاهر، كما كانا يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة. فيكون هذا مفيداً ومؤكدا لما قدمناه، من لزوم أن يتطابق على الإحسان إليهما الظاهر والباطن، ليتم البرور. (36)

قال تعالى: ﴿**وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾. مهما اجتهد الولد في الإحســـان إلى أبويه فإنه لا يجازي سابق إحسانهما بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من الله تعالى، وهي النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخرة إظهاراً لشدة رحمته لهما، ورغبة في وصول الخير العظيم من المولى الكريم إليهما، واعترافاً بعجزه عن مجازاتهما.

يدعو لهما هكذا في حياتهما، وبعد مماتهما. أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة سواء كانا مسلمين أم كافرين، ورحمة الكافرين بهدايتهما إلى الإسلام. وأما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما إلاّ إذا ماتا مسلمين؟ لقوله تعالى: {**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**} [التوبة: 113].

والكاف في قوله تعالى: ﴿**كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ للتعليل أي رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على إحسانهما إلي في حالة الصغر: حالة الضعف والافتقار. وفي هذا اعتراف بالجميل، وإعلان لسابق إحسانهما العظيم، وتوسل إلى الله تعالى في قبول دعائه لهما بما قدما من عمل؛ لأنه وعد أنه يجزي العاملين، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجل مظاهر الرحمة. وهو قد أخبر تعالى على لسان رسوله: «أنه يرحم الراحمن»(37) ولا أرحم- بعده تعالى- من الوالدين. (38)

قال الإمام الرازي - رحمه الله -: فإن قيل: إن إبراهيم - عليه السلام - كان أعظم الناس حلما وكرما وأدبا، فكيف قال لأبيه يا آزر على قراءة من قرأ: ﴿**وإذ قال إبراهيم**

لأبيه آزر﴾ بالضم وهي قراءة يعقوب، وقرأ الباقون بنصبها [39]: ﴿**إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** [الأنعام: 74] فخاطبه بالاسم وهو إيذاء، ثم نسبه ونسب قومه إلى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء؟

قلنا (الرازي): إن قوله تعالى: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا يدل على أن حق الله تعالى مقدم على حق الأبوين، فإقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقديما لحق الله تعالى على حق الأبوين. [40]

من بر الوالدين:

1 - أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءًا من غيرنا، فإن فاعل السبب فاعل للمسبب، ومن هذا أن لا نسب الناس حتى لا يسبوا والدينا؛ لأنا إذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما، وسبهما من أكبر الكبائر: ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه»**. [41]

2 - ومن برهما حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما وصلة رحمهما، فقد روى ابن ماجه وأبو داوود وابن حبان في صحيحه، عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي البدري رضي الله عنه، قال:

«بينا نحن جلوس عند رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- إذ جاء رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما، وإكرام صديقهما». [42] ، وفي إكرام صديقهما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير. فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب. واني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه"** [43]

هذا، وإن من راض نفسه على هذه الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والأقوال الطيبة التي أمر بها مع والديه- يحصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين. وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر الله وطاعة الوالدين. [44]

والله يوفقنا ويهدينا سواء السبيل، إنه المولى الكريم رب العالمين.

الخاتمة:

استفدت من هذا البحث كثيراً، في مجال البحث في الاتجاه الإصلاحي الاجتماعي ودراسة نماذج منه، والوقوف على آراء وأقوال جهابذة التفسير فيها، ومن تفسير ابن باديس - رحمه الله – الذي هو موضوع دراستي تحصلت على هذه النتائج:

1 – أن ابن باديس على اطلاع بعدة علوم مما يحتاج إليها المفسر، وقد وظفها في ذلك أحسن توظيف.

2 – أن تفسيره كان طريقة دروس يلقيها على العامة، ولذلك كان يتوسع كثيرا في الشرح والتحليل.

3 – كان لأساتذته البصمة الواضحة في أفكاره والتأثر بهم، وبالأخص ابن عاشور.

4 – كان يختار المواضيع المهمة التي تتصل بالواقع الذي يعيشه في الجزائر، ويتكلم عنها بإسهاب، ويوضح ما يتعلق بها من إرشاد وتوجيه وفوائد.

5 – في نظري – والله أعلم – لو أن تفسيره كان للقرآن الكريم كاملا لحظي باهتمام أكثر، وكان له شأن عظيم.

فلله الحمد والمنّة على ما يسره لنا وفتح به علينا، فاللهم اجعلنا من العاملين بما فيه، ويسر علينا حفظه وتحفيظه بالوجه الذي يرضيك عنا يا رب العالمين يا أرحم الرحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. فأسأل الله أن يوفقني في هذا البحث، ويعينني فيه، وأن يجعله نافعا خالصا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الهوامـــــــــــــــش:

(1) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002 م، 289/3.
(2) ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية)، عدد الأجزاء: 4 أجزاء، 72/1-80.
(3) ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، تحقيق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م، عدد الأجزاء: 1، 7/1-8.من مقدمة الكتاب.
(4) ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: 1359هـ)، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، تحقيق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م، عدد الأجزاء: 1، 99/1 – 107.
(5) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ، عدد الأجزاء: 9، 11/8، في باب طيب الكلام.
(6) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 112/1 – 115.
(7) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 334/1 - 337.
(8) البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، 4/8، حديث رقم 5976.
(9) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 66/1.
(10) وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ويعقوب وأبو جعفر.
(11) ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى : 833 هـ)، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع (المتوفى 1380 هـ)، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية]، عدد الأجزاء : 2، 306/2-307.
(12) الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، معاني القراءات للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1991 م، عدد الأجزاء: 3، 92/2.
(13) وهم نافع وأبو جعفر.
(14) وهم أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وخلف.
(15) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 306/2-307.
(16) ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: 370هـ)، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت، دار الشروق – بيروت، الطبعة: الرابعة، 1401 هـ، عدد الأجزاء: 1، 215/1.
(17) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»،

الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984م، عدد الأجزاء : 30 (والجزء رقم 8 في قسمين)، 66-65/15.

(18) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 67/1.

(19) مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: 5، 696/2، في باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، حديث رقم 1003.

(20) هو معاوية بن حيدة جد بهز بن حكيم. ينظر ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، 1379ه، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، عدد الأجزاء: 13، 331/1.

(21) البخاري، صحيح البخاري، 2/8، حديث رقم 5971.

(22) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 67/1.

(23) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 68/1.

(24) مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 1469/3، في باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، حديث رقم 1840.

(25) البخاري، صحيح البخاري، 59/4، في باب الجهاد بإذن الأبوين، حديث رقم 3004.

(26) مسلم، صحيح مسلم، 1975/4، في باب بر الوالدين، حديث رقم 2549.

(27) أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، عدد الأجزاء: 4، 17/3، باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان، حديث رقم 2530.

(28) ابن باديس، تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 69/1.

(29) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 68/15.

(30) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، عدد الأجزاء: 15، 6/9.

(31) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 69/1-70.

(32) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 69/1-70.

(33) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ، 449/3.

(34) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 70/1.

(35) السمين الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، عدد الأجزاء: 11، 342/7.

(36) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 70/1.

(37) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى : 241هـ)، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب – بيروت، الطبعة : الأولى ، 1419هـ - 1998 م، عدد الأجزاء: 6، 5/1. ذكره في مسند أبي بكر الصديق.

(38) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 71/1.

(39) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 259/2.

(40) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، 326/20.

(41) البخاري، صحيح البخاري، 3/8، في باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم 5973.

(42) أبو داوود، سنن أبي داود، 336/4. في باب بر الوالدين، حديث رقم 5142.

(43) مسلم، صحيح مسلم، 1979/4، في باب صلة أصدقاء الأب والأم ونحوها، حديث رقم 2552.

(44) ابن باديس، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، 72/1.